



برغم أنك تقرأ هذا الكلام بعينيك، وتقلب المصفحة بيديك، كما تغلق التليفزيون بأصابعك على الريموت أو مباشرة، ثم تذهب إلى الحمام سائراً على قدميك، لتعود عليهما، ثم تستلقى و تتمطى قبل أن تنام، أو تلقى بجسدك على السرير فيتقلب منك أو لا يتقلب، حتى تستغرق في النوم، برغم كل ذلك فأنت - مثلي غالباً - ليس عندك خبر أن لك جسداً، بما هو كما هو، مع أنك أنت شخصياً - مثلي أيضاً - لست إما جسدك. تصور؟!

لا يمكن أن تتعرف على جسدك بحق من خلال رأي عقلك فيه، أو تصوير عقلك له. مع أن الجسد له أولوية في الوجود، وكذلك عبر تاريخ التطور. كانت الكائنات الأولية تفكر بجسدها، وتحفظ بقائها بجسدها، وتحافظ على ذوعها بجسدها، وتمارس مشاعرها بجسدها، كل ذلك قبل أن يتخلق لها دماغ (مخ).

جسدك ليس في حاجة إلى توصية من عقلك المحترم حتى تعترف به.

كيف السبيل لتتعرف معاً على ما نسيناه حتى ألغيناها؟

بالنسبة لما نحاوله معاً هنا والآن، للأسف ليس هناك سبيل إليك، إلينا، إما من خلال عقلك الذي تقرأ به هذا الكلام. أليست القراءة هي وظيفة عقلية حتى لو كانت تمر من خلال عضو إحساس رائع، هو "العين" التي لم نعد نستعملها إلا مَعْبَرًا لما يتجاوزها؟ ومع ذلك دعنا نحاول:

هل تعرف أن لك جسدا (ولما مؤاخذاة)؟

أولاً: ماذا فعلنا بأجسادنا حتى تاريخه؟

ماذا طرأ على مفهوم الجسد عند الإنسان المعاصر؟ وبالتالي ماذا طرأ على ما هو جسد؟ عند أغلبنا؟ لقد انتهى الأمر بنا وبأجسادنا إلى اغتراب منذر. (مع عدم التعميم).

لا أريد الإطالة لكن الأمر يحتاج إلى النظر فيما آل إليه الحال:

(1) تم إهمال الجسد، أو تهمله لحساب ما يسمى العقل، فنحن نعرف أجسادنا من خلال ما شاع عنها في كلامنا وأحكامنا، أكثر مما نعرفها من خلال ما يصلنا منها مباشرة.

(2) تم احتقار الجسد، أو ازدراؤه، لحساب ما يسمى الروح. ومع أن الروح من أمر ربي، فالأفضل ألا نفتي فيها، فإنه ما أسهل على أي واحد لا يعرف جوهر دينه أن يضعها استقطاباً على أقصى الناحية الأخرى من الجسد، يحدث هذا في المتدين المُنغلق المُثُشَق، كما يحدث حتى في بعض أنواع العلاجات تحت مسمى "الروحانية"، فيصل هذا الاستقطاب بين الروح والجسد، وكأنهما نقيضان، إلى الشخص العادي ليسود الحديث عن طهارة الروح، وعشق الروح الذي ليس له آخر، "لكن عشق الجسد فاني، عشق الجسد فاني!!"

(3) يصل الأمر إلى أن نعامل الجسد كمجرد أداة، أو وسيلة لغيره، ومن ذلك:

• أن نقصر دوره على أن يكون وعاء ثم مطبخاً لطحن الطعام وهضمه وأيضاً، (تمثيله الغذائي) ليمدنا بالطاقة، وأحياناً نبني من خلال ذلك بعض وحدات من الخلايا البديلة نعوض بها ما تلف منا.

• كما قد نستعمل الجسد أداة للمتعة بما يحقق لنا ما تيسر من لذة أو يطفئ ما أثير من شبق.

• كذلك قد يستخدم الجسد معرضاً للممتلكات حين نضع عليه ما نملك من إكسسوارات لزوم رموز الطبقة للإعلان على أننا نمتلك من المال ما يمكن الاستغناء عنه ووضعها على رف الجسد للإعلان والتنويه.

• ثم إنه كثيراً ما يستعمل الجسد كلوحة تتلقى عبث الموشم المؤقت، أو الدائم، كلافته تعلن عن هوية صاحبه أو رغباته أو احتياجاته أو حتى موقفه السياسي أو المذهبي أو الديني.

• وأيضاً: راح أهل السوق والمشطارة يستغلون أجسادنا كمجال ومرتع لتسويق بضائعهم، سواء كان جسدنا يحتاج هذه البضائع أم لا.

• وقد يبدأ استعمال الجسد لما ليس له منذ الطفولة، كأداة للتنافس المسعور، وذلك مثلما يحدث حين يعد الأهل بناتهن ليصبحن أبطالاً في ألعاب القوى، فتظل الطفلة الفاتاة فالبطلة تقوم بتدريباتها سنين عددا لتكسر الرقم القياسي، أو تفوز على منافستها بواحد على ستة عشر من الثانية (أي والله!!!)، والأكثر قسوة أننا نفرح بذلك ونصفق لها وهي طائرة في الهواء، أو سابحة فوق الحاجز!!!

(4) مع زيادة الاهتمام بالصحة الجسمية والموقاية من الأمراض والتلوث والمخاطر ينقلب تعاملنا مع الجسد إلى اعتباره سلعة لها ظروف تأمين خاصة، حتى نكاد نوصي أن نمسكها من المناحية التي بها أسهم إلى أعلى لأنها تحتوى محتويات قابلة للكسر، ونظل نتبارى في إطالة عمرها الافتراضي، بغض النظر عما تعنيه أو تحتوية هذه السلعة، وبغض النظر عما ستقوم به في السنوات التي طالت بفضل حرصنا على سلامتها.

خامساً: في العلم، والطب، والتطبيب، يتم اختزال الجسد -عادة - إلى وحداته الأولية، باعتباره خلايا ومشتبكات، ترسل رسائلها إلى أعضاء وعضلات، ليصدر عنها سلوك وحركات... إلخ

إن الدعوة المطروحة ليست دعوة للاعتراف بالجسد، وإنما هي دعوة أكثر لإعادة التعرف عليه من جديد، أولاً بالتوقف عن نفيه وتهميشه، وثانياً بتعديل ما أمكن من سلوكنا العادي لعلنا نستعيد التعود على الإنصات للغته، واحترام حوارهِ مع جسد آخر، ليس باعتباره ذنباً أو لذة، وإنما باعتباره ذلك أقدر على التعبير الأعمق والأبقى والأكثر إبداعاً، أي إيماناً.

الأستاذ الدكتور يحيى الريحاني